بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الأحقاف

وهي سورة مكية، وتبدأ بقول الله عز وجل:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾

﴿حمٓ﴾ من الحروف العربية قصد بها القرآن الكريم لفت أنظار المشركين وجذب اهتمامهم ليستمعوا إليه فتصلهم الرسالة وتلزمهم الحجة.

﴿تَنزِيلُ﴾ هذا الكِتَابَ العظيم، وهو القرآن ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالىٰ، ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يغالبه أحد، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: في تدبيره وأقواله وأفعاله وتشريعاته.

فهلَّا آمنوا به وعملوا بما فيه؟ !

ثم يسوق ربنا عز وجل ما يدل علىٰ عزته وحكمته، ما لو عرفه واعتبر به عاقل: لآمن بالله سبحانه وتعالىٰ، حيث يقول:

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾

أي: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ علىٰ هذا الإبداع ﴿إِلَّا﴾ خلقًا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ وبغاية عظيمة وليس عبثًا، وأيضا: لـ ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ وهو فناء الدنيا وبعث الخلائق، وبهذا: أصبح واضحا أن هناك إلٰهًا لهذا الكون عزيزًا حكيمًا، عادلًا رحيمًا، وأن هناك كذلك بعثاً للعباد، ﴿و﴾ مع هذا الوضوح: نجد أن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟﴾ به وخُوِّفوا منه، وهو العذاب بسبب كفرهم وطغيانهم ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يؤمنون.

ومع هذا الإعراض يأمر ربنا تبارك وتعالىٰ رسوله بمناقشتهم في أسباب إعراضهم، وإبطال مزاعمهم الفاسدة إذ يقول له جل جلاله:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المعرضين ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ يعني: أخبروني ﴿مَّا﴾ هذه الأصنام التي ﴿تَدْعُونَ﴾ يعني: تعبدون ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ إنها: لا شيء!! وإلا ﴿أَرُونِى﴾ وأرشدوني ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إن كانوا آلهة؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أي: مشاركة مع الله ﴿فِى﴾ خلق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؟ إنه: لا هذا، ولا ذاك !! وعلىٰ هذا كيف تعبدونهم، وهم ليسوا بآلهة!!؟ بل مَن الذي جعلهم لكم آلهة؟ ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ﴾ أنزله الله ﴿مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ القرآن، يشهد لكم بصحة عبادتكم لهم .﴿أَوْ﴾ ائتوني بأي ﴿أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ ولو كان أبسط شيء يدل على صحة عبادتكم لهم، وذلك: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنهم آلهة!!

وهكذا أبطل القرآن دعواهم، ثم حدثهم عن حجم آلهتهم هذه، فقال:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾

حقًّا إنه: لا ﴿أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟﴾ ويعبد ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾!! وهي: هذه الأصنام.

ثم وصف الله معبوداتهم هذه بأربعة أوصاف، كلها تجلب الحسرة لهم يوم القيامة، وتدعوهم إلىٰ مراجعة أنفسهم في الدنيا:

الوصف الأول: أنها ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾ أي: لعابدها إن دعاها، ومهما دعاها، أو طلب منها ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لأنها لا تملك نفعًا ولا ضرًّا.

الوصف الثاني: أنها تكون ﴿عَن دُعَآئِهِمْ﴾ لها ﴿غَٰفِلُونَ﴾ أي: غافلة، لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل.

الوصف الثالث: أنه ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ الذين كانوا يعبدونهم في يوم البعث ﴿كَانُوا۟﴾ أي: صاروا ﴿لَهُمْ أَعْدَآءً﴾.

الوصف الرابع: أنهم في يوم القيامة ﴿كَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي: يقولون: والله ما دعوناهم إلىٰ عبادتنا.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ من هذا الذي يعبد آلهة هذه صفاتها، وهذه قدراتها؟ إنه بالطبع لا أضل منه!!

وبعد ان تبيَّن ضلالهم في قضية التوحيد: يبيِّن سبحانه - أيضًا ـ ضلالهم في موضوع النبوة، الذي كان سببًا في ضلالهم كله. فيقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

وكانوا ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ من القرآن ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات لا غموض فيها، ولا إبهام !! ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كبراً وعناداً ﴿لِلْحَقِّ﴾ وهو القرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ به محمد وتلاه عليهم ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واضح أنه سحر.

ولم يكتفوا بأن وصفوا القرآن هكذا بأنه سحر. بل زادوا علىٰ ذلك كفرًا وعنادًا.

يقول الحق سبحانه:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾

يعني: بل ﴿يَقُولُونَ﴾ أيضا إنه ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ واختلقه من عند نفسه، وبهذا فليس القرآن من عند الله، و ليس محمد بنبي كما يقول، ويأمره الله عز وجل بالرد عليهم، فيقول له:

أولًا: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ من نفسي: فقد كذبت علىٰ الله، ولعاقبني أشد العقاب.

وعندها ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى﴾ أنتم ولا غيركم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ يمكنكم من الدفاع به عني، فكيف أفتريه؟

وعلىٰ أية حال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ من الطعن في وحدانية الله، وإنكار الوحي، وعدم الاعتراف بنبوتي.

لذلك ﴿كَفَىٰ بِهِۦ﴾ سبحانه ﴿شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بصدق البلاغ، ويشهد عليكم بالتكذيب والعناد، ﴿وَ﴾ ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تاب وآمن ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين. فآمنوا إن كنتم عقلاء، وأردتم غفرانه، ورحمته!!

ثم يقول له ثانيًا.. في معرض الرد عليهم:

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾

أي ﴿قُلْ﴾ لهم لم تنكرون نبوتي، فأنا:

أولاً: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ **أي:** لست بأول رسول من الله، فقبلي كان رسل كثيرون.

ثانيًا: ولا أعلم الغيب، ولا أدعي ذلك، ﴿و﴾ على هذا: ﴿مَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ في الدنيا؟

ثالثًا: ما جئت بدعوتكم إلى الايمان بالله الواحد من عند نفسي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ من ربي عز وجل.

رابعًا: ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾ بالنسبة لكم ﴿إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أمري ظاهر، ودعوتي واضحة. فامنوا إن كنتم عقلاء، وأردتم غفران الله، ورحمته !!

ثم يقول ربنا للنبي ﷺ ثالثًا.. في معرض الرد على هؤلاء المعرضين المعاندين:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ حقًّا ﴿و﴾ قد ﴿كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ كما تفعلون الآن !! ﴿و﴾ في الوقت ذاته ﴿شَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الذين تسألونهم، وتثقون في إجاباتهم ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي عليه ﴿فَـَٔامَنَ﴾ هو أنه من عند الله ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم، وبقيتم على كفركم، **أخبروني:** مَن أضل منكم؟ لا أحد. بل: مَن أظلم منكم؟ لا أحد. ولذلك: لا تستحقون الهداية؛ حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ومع هذا الإعراض عن القرآن!!

ومع هذا العناد من الكفار عن الإيمان!!

كان الناس يدخلون في دين الله، ويوحِّدون ربهم، ويتَّبعون محمدًا ﷺ. ماذا كان موقف هؤلاء الكفار، من هذه الظاهرة؟ يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: قالوا في حقهم، تنقيصاً لهم ﴿لَوْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿خَيْرًا﴾ لآمنا به، واتبعناه قبلهم، و ﴿مَّا سَبَقُونَآ﴾ هم ﴿إِلَيْهِ﴾،ولكنه: ليس حقًّا، ولا خيرًا، ولهذا: لم نؤمن به، ولم نتبع محمدًا.

والسبب في موقفهم هذا: أنَّهم لم يهتدوا إلىٰ ما فيه:

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ ويعرفوا عظمته، ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بالطبع ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ﴾ كذب ﴿قَدِيمٌ﴾ نقله بنفسه، وافتراه من الكتب القديمة السابقة.

ويرد الله عز وجل عليهم بقوله سبحانه:

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾

أي: ﴿و﴾ القديم الذي كان ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ هو ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وهو التوراة، الذي كان ﴿إِمَامًا﴾ في دين الله وشرعه ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به، **والقرآن**: ليس كذبًا، ولا افتراءً من محمد، بل هو ﴿كِتَٰبٌ﴾ من عند الله.

ثم يصفه ربنا بهذه الصفات:

الأولىٰ: أنه ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ لما سبقه من الكتب المنزَّلة من الله.

الثانية: أنه جاء ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي باللسان العربي؛ ليفهموا بلاغته وفصاحته، فيعرفوا أنه من عند الله، وليس من صنع البشر.

الثالثة: أنه جاء ﴿لِّيُنذِرَ﴾ ويخوِّف ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ من عذاب الله.

الرابعة: أنه جاء ﴿بُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ المؤمنين المطيعين.

هذا هو القرآن، حقًّا إنه من عند الله، وليس إفكًا كما يقولون ﴿... كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

وبعد أن تقررت أدلة التوحيد، وأدلة النبوة !! وبعد أن تم الرد علىٰ شبهات المشركين !! وبعد أن ظهر أن القرآن الكريم: بشرىٰ للمحسنين !! يكون حديث القرآن عن هؤلاء ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فيقول الله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ علىٰ التوحيد، وطاعة الله، والتوبة إليه من الذنوب والمعاصي، وأخلصوا العمل له سبحانه، هؤلاء: هم المحسنون، ولذلك: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من أي مكروه يلحق بهم في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ فوات محبوب في الدنيا.

حقًّا: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ مالكوها، والمقيمون فيها، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا خروج منها، ولا موت بها، وذلك ﴿جَزَآءًۢ﴾ لهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مما وفقهم الله إليه من العمل الصالح.

ولـمَّا ذكر الله تعالىٰ جزاء الإحسان: أتبعه ببيان أعظم أنواعه، وهو الإحسان إلىٰ الوالدين. فقال المولىٰ عز وجل:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أن يحسن إليهما ﴿إِحْسَٰنًا﴾ عظيمًا، ثم خص الأم: بمزيد هذا الإحسان، وذلك: لأنها قد ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ أي: بمشقة ﴿وَوَضَعَتْهُ

كُرْهًا﴾، ﴿و﴾ كان ﴿حَمْلُهُ﴾ هذا ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ بعد الرضاع ﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ كلها تعب ومشقة، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ﴾ هذا الإنسان ﴿أَشُدَّهُۥ﴾ وهو: كمال قوته، وعقله، ﴿وَبَلَغَ﴾ من العمر ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، طلب من ربه و ﴿قَالَ﴾:

أولًا: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ بها، وهي: نعمة الإسلام.

ثانيًا: ﴿و﴾ رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت بها ﴿عَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ وهي: نعمة الإسلام.

ثالثًا: ﴿و﴾ أعِنِّي على ﴿أَنْ أَعْمَلَ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ يسعد به العباد، وتصلح به البلاد.

رابعًا: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ أي: اجعلها موضعاً للصلاح والاستقامة.

خامسًا: ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ فاقبل توبتي، واغفر ذنوبي.

سادسًا: ﴿وَإِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لك، المستسلمين لقضائك، العاملين بشريعتك، فثبتني على ذلك.

حقًّا: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المحسنون، الموصوفون بما ذكر: هم ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ أي: منهم ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ ونرضى به، ونثيبهم عليه، وهم الذين ﴿نَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ ونغفر لهم،وهم الذين نجعلهم ﴿فِىٓ﴾ زمرة ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ﴾ الذين يرثونها، ﴿و﴾ كان هذا الجزاء: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ به في الدنيا، عن طريق الكتب من الله، على ألسنة الرسل.

ولمَّا ذكر الله حال: المحسنين، الداعين للوالدين !! ذكر عقيبه حال: المسيئين، العاقين للوالدين، فقال جل وعلا:

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾

﴿و﴾ أما ﴿ٱلَّذِى﴾ فجر، و ﴿قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ متضجراً، ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ من القبر، و أبعث!! خاصة ﴿وَقَدْ خَلَتِ﴾ أي: مضت ﴿ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ ولم يبعث منهم أحد، ﴿وَهُمَا﴾ أي: والديه ﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ أن يعيده إلىٰ الصواب، وأن يرزقه الإيمان والعمل الصالح، ويقولان له: ﴿وَيْلَكَ﴾ هلكت بكفرك هذا، ﴿ءَامِنْ﴾ بوحدانية الله، والبعث، والحساب، والجزاء ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾ أي: صدقٌ لا خُلْفَ فيه.

﴿فَيَقُولُ﴾ مجيباً لهما: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ الكلام ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فهو كذب، لا صدق فيه، ولا حدوث له.

حقًّا، هذا ما يقول عنه المولىٰ وعن أمثاله:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

أي: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الفاجرون، المسيؤون: هم ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ بالعذاب ﴿... لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وذلك ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي: ضمن أمم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ وكفرت بالله، وأنكرت البعث مثلهم ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ يوم القيامة!! هذا ﴿وَلِكُلٍّ﴾ فريق منهم ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ في العذاب ﴿مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾، ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ ربك ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ بما يناسبها جزاءً لهم، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

ولمَّا بيّن المولىٰ أنه يوصل حق كل أحد إليه: بيّن بعض أحوال العصاة، فقال تعالىٰ:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة ﴿يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾: فيفزعون، ويعذبون فيها: فيتألمون، ويندمون، ويتمنون!! **فيقال لهم:** ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ التي مَنَّ الله بها عليكم، ﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ في الدنيا، دون أن تؤمنوا بصاحب هذه النعم، ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: الهوان وهو الذل، **وذلك:** ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وتبغون ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، ﴿و﴾ كذلك ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ بالكفر والمعاصي.

ولمَّا قدَّم الله عز وجل لكفار مكة دلائل التوحيد والنبوة: ولم يؤمنوا وشغلوا بالشهوات والملذات !! بيّن الله لهم عاقبة ذلك بضرب المثل، وتوضيح المصير، بمن سبقهم من الأمم القريبة منهم، فقال للنبي ﷺ:

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْ﴾ لهم يامحمد هودًا عليه السلام ﴿أَخَا عَادٍ﴾ الأقوياء الأشداء ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ الذين كانوا ﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾ قريبًا منكم بجنوب الجزيرة العربية، وخوَّفهم بعذاب الله، ودعاهم إلى الايمان، ﴿و﴾ لم يكن وحده في ذلك، حيث ﴿قَدْ خَلَتِ﴾ سبقت ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ أمثاله لأقوامهم أمثالكم ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ من قبله ومن بعده !! وقال لهم، كما يقول لكم محمد: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إن لم تؤمنوا. فماذا قالوا له؟

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿قَالُوٓا۟﴾ له: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ بهذه الدعوة ﴿لِتَأْفِكَنَا﴾ أي: تصرفنا ﴿عَن﴾ عبادة ﴿ءَالِهَتِنَا﴾ التي نعبدها !!؟ لن نؤمن لك، ولن نخاف تهديدك، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ به من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما تقول، ونحن على ثقة أنك غير صادق.

فكان جوابه لهم:

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ بوقت نزول ما أعدكم و أخوفكم به من العذاب ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، ﴿و﴾ ما دَوْري: إلَّا أن ﴿أُبَلِّغُكُم﴾ فقط ﴿مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ إليكم من الدعوة إلىٰ الإيمان بالله، والتخويف بهذا العذاب، إذا بقيتم علىٰ كفركم وعنادكم، ﴿وَلَٰكِنِّيٓ﴾ مع ذلك ﴿أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ وظيفة الرسل، ولا تفهمون ضرر عنادكم، واستعجالكم هذا العذاب.

وأصرُّوا على الكفر والعناد، وجاء العذاب، إذ أرسل الله عليهم الريح، ولم يعرفوا أنها العذاب:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: الريح يحمل سحابًا ﴿عَارِضًا﴾ في أفق السماء ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ يسير في جهتها !! فرحوا و ﴿قَالُوا۟﴾ لبعضهم البعض ﴿هَٰذَا عَارِضٌ﴾ سحاب ﴿مُّمْطِرُنَا﴾ وسينبت زرعنا، ويكثر خيرنا، ورأىٰ هود عليه السلام ما رأوا فرد عليهم وقال لهم: لا، ليس هذا ريح يحمل السحاب ليمطركم، ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ من العذاب، وهو في الحقيقة: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لكم.

ريح ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ﴾ في طريقها ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾، وقد كان !! ودمرت الريح كل شيء بأمر ربها، ﴿فَأَصْبَحُوا۟﴾ هلكىٰ كلهم، رجالًا ونساءً وأطفالًا، وأموالًا ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾، ولم ينج من هذا العذاب: إلَّا هود عليه السلام، ومَن آمن معه.

يقول تعالىٰ مهدداً كفار مكة، وكفار الدنيا كلها: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الجزاء الذي وقع بعاد قوم هود ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أينما كانوا، ومهما كانوا.

وفي لهجة التحذير: يواصل ربنا الكلام مع الكفار قائلًا:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ﴾ في الأرض، وأعطيناهم من كنوزها وخيراتها الكثير، ﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ يا أهل مكة، وأعطيناكم كما أعطيناهم؛ لطغيتم أكثر وأكثر، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ﴾ كذلك، كما جعلنا لكم ﴿سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ يستفيدون بها في معرفة آيات الله، ويؤمنوا !! ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ أي: ما أفادهم، ولا أفادوا من حواسهم ﴿سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ أبدًا ولو كان قليلًا، ﴿إِذْ كَانُوا۟﴾ مثلكم ﴿يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ولا يؤمنون، ﴿و﴾ لذلك: ﴿حاق﴾ نزل ﴿بِهِم﴾ من العذاب ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ !! فاحذروا، وآمنوا، ولا تستهزؤا.

ثم يقول لهم ربنا عز وجل أيضًا:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ﴾ أيضا ﴿مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ يا كفار مكة.

وذلك: لكفرهم، وعنادهم.

﴿و﴾ كنا قد ﴿صَرَّفْنَا﴾ كررنا ونوعنا لهم ﴿ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ والدلائل، على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن عنادهم وكفرهم.

ولكنهم لم يؤمنوا، فأهلكناهم، ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلَّا ﴿نَصَرَهُمُ﴾ ومنع عنهم هذا العذاب ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهي الأصنام، التي كانوا يعبدونها، فيما يزعمون ﴿قُرْبَانًا﴾ تقربهم من الله، ويجعلونها ﴿ءَالِهَةً﴾ !! أبدًا، لم يحدث، ولم تنصرهم، ﴿بَلْ ضَلُّوا۟﴾ وغابوا ﴿عَنْهُمْ﴾ في وقت الشدة، وهو وقت إهلاك الله لهم، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ العذاب: نتيجة إِفْكِهِمْ وكذبهم في اتخاذ الآلهة، ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾

علىٰ الله، وعلىٰ الرسل.

هذا وبعد أن بيَّن ربنا تبارك وتعالىٰ أن في الإنس مَن آمن وله ثوابه، ومَن كفر وعليه عقابه!! يبيِّن أيضًا: أن الجن فيهم، مَن آمن وهو معرض للثواب، وفيهم مَن كفر وهو معرَّض للعقاب، فقال تعالىٰ:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿و﴾ اذكر لهم ليعتبروا ﴿إِذْ صَرَفْنَآ﴾ وجَّهنا ﴿إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ منك حينما تتلوه، ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ واستمعوا إليه ﴿قَالُوٓا۟﴾ لبعضهم البعض ﴿أَنصِتُوا۟﴾ لنسمع جيدًا، ونفهم جيدًا، واستمَعوا وفهموا، ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ وفرغ النبي ﷺ من التلاوة ﴿وَلَّوْا۟﴾ عادوا ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾ من الجن ﴿مُّنذِرِينَ﴾ لهم.

ماذا قالوا لقومهم؟

﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قَالُوا۟﴾ أي هذا النفر، الذين استمعوا إلىٰ القرآن لقومهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا﴾ أي: استمعنا إلىٰ القرآن، ثم وصفوا لقومهم هذا الذي استمعوا إليه بهذه الأوصاف:

الأول: ﴿كِتَٰبًا﴾ يماثل الكتب الإلهية، وهو القرآن.

الثاني: ﴿أُنزِلَ﴾ أي: أنه ليس من صنع البشر، بل هو منزَّل من الله تعالىٰ رب البشر.

الثالث: ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ أي: من بعد الكتاب الذي نُزِّل علىٰ موسىٰ عليه السلام.

الرابع: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما سبقه من الكتب؛ حيث يدعو إلىٰ التوحيد، والنبوة، والإيمان باليوم الآخر، ومكارم الأخلاق، كما كانت تدعو هي أيضًا.

الخامس: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ وهو إسلام الوجه لله.

السادس: ﴿و﴾ ويهدي ﴿إِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في الأقوال والأفعال.

وبعد أن وصفه لهم هذا الوصف، قال:

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

نعم، ما دام الذي استمعوا إليه بهذا الوصف: إذًا يجب اتباعه، ولذلك قال لهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ الإيمان، وهو محمد ﷺ ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ وبما جاء به، ولو فعلتم ذلك: كانت النتيجة خيرًا، حيث ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، كذلك ﴿وَيُجِرْكُم﴾ وينقذكم ﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في يوم القيامة.

وبعد أن شوَّقهم إلىٰ هذه النتائج الطيبة إذا آمنوا، حذرهم من النتائج السيئة إذا لم يؤمنوا، حيث قال لهم:

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

يعني: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ منكم ويصرُّ علىٰ الكفر!! ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ﴾ أي: هارب، وناج، من عذاب الله، بالاختفاء في أي مكان ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ علىٰ سعتها ﴿و﴾ كذلك ﴿لَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ يدافعون عنه، أو يمنعون نزول العذاب به، حقًّا.. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين لا يؤمنون به ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وضياع كبير.

ثم يقيم ربنا الدلائل علىٰ قدرته سبحانه علىٰ ما خوَّف الجنيُّ به قومه، وعلىٰ ما خوَّف به سبحانه كفار مكة، حيث يقول جل جلاله:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

نعم، ﴿أَ﴾ غفلوا ﴿وَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أي كفار الإنس والجن ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ عز وجل ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ علىٰ هذا النحو البديع ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ ولم يعجز عن خلقهن!! أغفلوا عن أنه سبحانه، كما قدر علىٰ ذلك ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِۦَ

﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟ الجواب: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ﴾ قادر علىٰ بعث الموتىٰ، وهو عز وجل كذلك ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء.

ثم يقول سبحانه واعظًا لهم:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ فيفزعون، ويُعذَّبون فيها فيتألمون، .

ويقال لهم تقريعًا وتوبيخًا علىٰ استهزائهم الذي كانوا يقابلون به وعد الله ووعيده لهم وهم في الدنيا: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ العذاب ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ هو الحق الذي كنتم به تكذبون؟!! ولا يملكون حينذاك إلَّا الاعتراف ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾: إنه هو الحق،فيقال لهم: إذن ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ خالدين فيه مخلدون.

وبعد هذه الحوارات الطويلة في إقناع الكفار بالإيمان، ثم إصرارهم علىٰ ما هم عليه، يكون الأمر الأخير للنبي ﷺ بالصبر، إذ يقول سبحانه له:

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

أي: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمد علىٰ عنادهم معك، وأذيتهم لك ﴿كَمَا صَبَرَ﴾ من قبلك علىٰ مثل ذلك ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ﴾ أصحاب الصبر علىٰ الشدائد، والثبات في الأزمات ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ إخوانك، الذين أرسلناهم من قبلك، ﴿و﴾ كذلك اصبر ﴿لَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ﴾ العذاب فهو آت لا محالة، ونازل بهم بالضرورة، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الآخرة ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ ويقيموا في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ﴾ فقط، هذا ﴿بَلَٰغٌ ۚ﴾ وفيه الكفاية لمن أراد أن يتَّعظ، وأن يهتدي، وأما مَن لا يتَّعظ ولا يهتدي، فمصيره الهلاك، إذ: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله؟

أبدًا، وحاشا لله أن يكون غير ذلك!!

فهو سبحانه وتعالىٰ الحكيم العادل.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة محمد

وهي سورة مدنية، تبدأ بقوله عز وجل:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ اعتقادًا ﴿وَصَدُّوا۟﴾ الناس، ومنعوهم بسلوكهم و إمكاناتهم ﴿عَن﴾ اتباع ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ودينه وهو الإسلام، هؤلاء: ﴿أَضَلَّ﴾ الله وأحبط وأضاع ثمرة أَعْمَالِهِمُ الحسنة في الآخرة، حتىٰ وإن نالوا بعضها في الدنيا.

﴿و﴾ أما ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ اعتقادًا ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ سلوكًا، ﴿وَءَامَنُوا۟﴾ وثقوا ﴿بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ وهو القرآن ﴿و﴾ أيقنوا أنه ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وعملوا به، هؤلاء: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ﴾ وغفر لهم ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ التي وقعت منهم، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ لهم ﴿بَالَهُمْ﴾ أي: حالهم. ويبيِّن ربنا السبب، فيقول جل وعلا:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي إضلال أعمال الكافرين، وتكفير سيئات المؤمنين وإصلاح بالهم: ﴿بِـ﴾ سبب: ﴿أَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ﴾ وهو الشيطان فأضلهم، ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ

﴿ءَامَنُوا﴾ خالفوا الشيطان، و ﴿ٱتَّبَعُوا ٱلْحَقَّ﴾ الذي جاء ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ وهو القرآن، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ البيان ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ ليهتدوا.

ولمَّا بيّن ربنا تبارك وتعالىٰ، أن الذين كفروا: أضل عز وجل أعمالهم!!

ومن المعلوم أن اعتبار الإنسان، وقيمته: تكون بالعمل الصالح، وأن مَن لا عمل له: فهو همج، لا فائدة منه، وإعدامه خير من وجوده، لذا: لمَّا كان الكفار بلا عمل، بل أعمالهم شريرة ضالة، ضارة، أمر ربنا بقتالهم، فقال:

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾

أي: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في ساحات القتال،وهم يصدون الناس عن سبيل الله، ويؤذون خلق الله ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ لهم منكم، أي: فاضربوا رقابهم واقتلوهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ بكثرة القتل فيهم، وسَهُلَ أسرهم ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ يعني فأسروهم، حتىٰ تنتهي الحرب، ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ﴾ أي: بعد انتهاء الحرب منكم عليهم، بتركهم وإطلاق حريتهم، ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي: تحصلون علىٰ فداء لهم بمال، أو بتبادل أسرىٰ من المسلمين معهم، وذلك ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ﴾ أي: أثقالها، وتنتهي، ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو المطلوب لحكم يعلمها الله، ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ هزيمتهم ﴿لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ بدون قتال ﴿وَلَٰكِن﴾ شرع ذلك ﴿لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ﴾ وينتصر الحق علىٰ الباطل!! ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟﴾ من المؤمنين ﴿فِى سَبِيلِ﴾ الدفاع عن دين ﴿ٱللَّهِ﴾: فأجرهم عظيم علىٰ النحو التالي:

أولًا: ﴿فَلَن يُضِلَّ﴾ ويضيع ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ بل ينمِّيها لهم، ويأجرهم عليها.

ثانيًا: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلىٰ الجنة، ليدخلوها.

ثالثًا: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ حيث ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

رابعًا: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا﴾ طيَّبها وزيَّنها وحملها ﴿لَهُمْ﴾.

هذا ما لهم في الآخرة..

وأما الذي في الدنيا: فيعدهم الله بالنصر والتثبيت، حيث يقول المولىٰ عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾

يعني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ﴾ دين الله، فإن ﴿ٱللَّهَ﴾ ورسوله: ﴿يَنصُرۡكُمۡ﴾ علىٰ عدوكم بشتىٰ أنواع النصر، ﴿وَيُثَبِّتۡ﴾ علىٰ الحق، وعلىٰ مبادئ الإسلام، وفي ساحات الجهاد ﴿أَقۡدَامَكُمۡ﴾ وهذا: عن المسلمين وشهدائهم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩﴾

﴿و﴾ أما ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إن كانوا أحياء بعد القتال: ﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ أي: هلاكًا ينتظرهم، وتعاسة يعيشون معها، وخيبة أمل في أهدافهم، ﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ إن قُتلوا في هذه المعارك، التي عملوها في الدنيا، ولو كانت أعمالًا جيدة؛ حيث يدخلون النار.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الجزاء: ﴿بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ﴾ وحاربوا المؤمنين، و ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من تشريع ومنهاج، ﴿فَأَحۡبَطَ﴾ الله ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ وأضاع ثوابها، ولا غرابة في ذلك!!

ثم يقول المولىٰ سبحانه:

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝١١﴾

﴿أ﴾ قعد هؤلاء الكافرون ﴿فَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾ إلىٰ آثار السابقين؛ فيعرفوا ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ﴾ كذبوا وعاندوا ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؟ لقد ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ بلادهم وأهلكهم، وأبادهم، ونجّىٰ المؤمنين، ﴿و﴾ ليعرفوا: أنه ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ من أهل مكة ومن غيرهم ﴿أَمۡثَٰلُهَا﴾ أيضًا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التدمير للكافرين، والإنجاء للمؤمنين ﴿بِـ﴾ سبب: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ حيث اتخذوه لهم وليًّا، ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ يمنع عنهم العذاب.

وإذا كان الحديث عن إهلاك الكافرين، فيه نوع من النصرة للمؤمنين!!

فإنه عز وجل يحدثنا عن نوع آخر من هذه النصرة الإلهية للمؤمنين. حيث يقول:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ينصر أولياءه، حيث ﴿يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ جزاءً لهم ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، ﴿و﴾ أما ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: فلا يغرنكم يا مؤمنين ما هم فيه؛ فإنهم ﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾ بمتاع الدنيا أيامًا قلائل ﴿وَيَأۡكُلُونَ﴾ بشراهة، غافلين عن مصيرهم ونهايتهم ﴿كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ بشراهة، غافلة عما ينتظرها من الذبح، ﴿و﴾ بعد هذه الحياة: تكون ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ أي: دار إقامة لا يخرجون منها. ثم يقول ربنا للحبيب ﷺ:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣﴾

أي: وكم ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾ كانت ﴿هِيَ﴾ وأهلها ﴿أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ﴾ مكة ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ يعني أخرجك أهلها؟!! إنهم كثير !! وقد ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ لمَّا كفروا وعاندوا ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ من هذا الهلاك، فليعتبر كفار مكة بذلك..!!

ويبيِّن ربنا الفرق بين النبي ﷺ وبين معانديه، فيقول جل وعلا:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ١٤﴾

أبدًا، والله لا يستويان!!

ليس محمد ﷺ الذي هو ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ودليل واضح، وصراط مستقيم ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فرآه حسنًا، أي: من هؤلاء الكفار، ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ بالتالي ﴿أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ وتركوا دين الله، وإذا كان هذا هو الفرق بين المهتدين، وبين الضالين في الدنيا: فالفرق كبير بينهما في الآخرة.

يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

هذا ﴿مَّثَلُ﴾ أي: وصف ﴿ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ﴾ بها، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات.. ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ ماء جار، لا يتغير طعمه، ولا لونه، ولا رائحته، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ كما تتغير ألبان الدنيا، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ ليست كخمر الدنيا، لا تذهب عقل شاربها، ولا كريهة في نفسها، بل ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لا تعادلها لذة، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ مع ذلك: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ألوان وألوان ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ ـ فوق كل هذا ـ ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فهو سبحانه راضٍ عنهم، مع إحسانه إليهم.

أهذا الجزاء الطِّيب والنعيم الدائم للمتقين ﴿كَمَنْ﴾ أي: مثل جزاء الكافر الذي ﴿هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ لا يخرج منها ولا يستريح فيها أبدًا، ﴿و﴾ فوق ذلك ﴿سُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ حارًّا شديد الحرارة لا يُتحَمَّل أبدًا، ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ في بطونهم؟!!

هذا، ولمَّا كان حديث السورة من أولها إلىٰ هنا، عن الكافرين والمؤمنين، وجزاء كل منهما: يبدأ هنا حديث عن صنف جديد من الناس، لم يظهر في العهد المكي للإسلام، وهم المنافقون، يقول الحق سبحانه:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾

أي: ومن الكفار ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ﴾ وهم المنافقون ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ وقد سمعوا القرآن، ﴿قَالُوا۟﴾ استهزاء وسخرية ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من المسلمين ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ﴾ أي: حاليًا؛ لأننا لم نفهم ما قال؟!! ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ هم الذين طبع الله علىٰ قلوبهم، بالكفر فلا يعقلون، ﴿و﴾ هم كذلك: الذين ﴿ٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ وخالفوا فطرتهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

﴿و﴾ أما ﴿ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا﴾ إلىٰ الله، وسلكوا الطريق لمرضاته: ﴿زَادَهُمْ﴾ الله كرماً منه ﴿هُدًى﴾ علىٰ هداهم، ﴿وَءَاتَىٰهُمْ﴾ أي: أعانهم علىٰ ﴿تَقْوَىٰهُمْ﴾ ووفَّقهم إليها للعمل بما أمرهم به.

وبعد أن اتضح الفرق بين الهدىٰ والضلال !! ماذا ينتظر الكافرون ؛ ليؤمنوا؟

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون، وهم الكافرون والمنافقون ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامة ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ فجأة، وهم في لهوهم غافلون عنها؟ فاحذروا وآمنوا، ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: علاماتها التي تشير إلىٰ قرب وقوعها، ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ﴾ فكيف يتصرفون ساعتها ﴿إِذَا جَآءَتْهُمْ﴾ بغتة؟ وكيف تنفعهم يوم القيامة ﴿ذِكْرَىٰهُمْ﴾ لها، واعترافهم بها؟.

ولمّا قال ربنا تبارك وتعالىٰ عن يوم القيامة: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾!! خاطب النبي ﷺ - والمراد أمته - قائلًا:

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

أي: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وحده يأتي بالساعة، وبالتالي: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ﴾ لتستن أُمَّتُكَ بذلك، وتتعلم الاستغفار من الذنوب. **والمعنىٰ**: فاثبت علىٰ التواضع، باستغفار ذنبك، وذنوب مَن علىٰ دينك، وقد فعل النبي ﷺ ذلك، حيث كان يستغفر ربه في كل يوم مائة مرة، هذا ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في مصالحكم نهاراً ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ في مضاجعكم ليلًا، ولا يخفىٰ عليه شيء منكم. فاحذروه!!

وبعد أن ذكر الله عز وجل موقف المنافقين عند سماع القرآن بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ [محمد: ١٦]، وموقف المؤمنين عند ذلك بقوله :﴿وَٱلَّذِينَ

﴿ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] وضَّح موقفهم جميعاً من آيات الجهاد، فقال تعالىٰ:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ طلباً للجهاد، وحبًا في رفع راية الإسلام: ﴿لَوْلَا﴾ هلَّا ﴿نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها الأمر بالقتال !! ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ واضحة لا نسخ فيها ولا تأويل لها، ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ واضحًا!! ماذا يفعل المنافقون؟

يقول عز وجل: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ المنافقين ساعتها ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ خائفين ﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾، وهذا: موقف سيء ما كان ينبغي منهم، ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ من ذلك، أن يكون موقفهم: ﴿طَاعَةٌ﴾ لله ورسوله، ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ حسن لك، بدلًا من كلامهم السيئ.

علىٰ أية حال: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: فرض القتال، وحانت ساعته!! ﴿فَلَوْ﴾ أنهم ﴿صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وآمنوا به، وأطاعوا ﴿لَكَانَ﴾ هذا الصدق والإيمان، وهذه الطاعة ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من كراهيتهم للجهاد.

ثم يقول لهم ربنا جل شانه وعظم سلطانه:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ أي: لعلكم ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن طاعة الله، والجهاد في سبيله: ﴿أَن﴾ تعودوا إلىٰ أمور الجاهلية، و ﴿تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بغياً ﴿وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ ظلماً!!

الذين يفعلون هذا، يقول المولىٰ عنهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وطردهم من رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن سماع الحق ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ عن سلوك طريق الهدىٰ.

ولا يتركهم المولىٰ حيارى، بل يرشدهم إلىٰ ما يأخذ بأيديهم، ويعيدهم إلىٰ الصواب، فيقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ؟

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ فيعرفون طريق الهدى والفلاح، ﴿أَمْ﴾ أنهم أصحاب ﴿قُلُوبٍ﴾ عليها ﴿أَقْفَالُهَا﴾ فلا تستجيب لهداية، ولا تحب رشادًا؟ هؤلاء إذن: قد ارتدوا عن الإيمان، والله عز وجل يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

﴿إِنَّ﴾ هؤلاء ﴿الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾ من الإسلام إلىٰ الكفر ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ و اتضح لهم الحق: ﴿الشَّيْطَانُ﴾ هو الذي ﴿سَوَّلَ﴾ حسَّن ﴿لَهُمْ﴾ هذا الكفر ﴿وَأَمْلَىٰ﴾ مد في الأماني ﴿لَهُمْ﴾ وغرهم وخدعهم.

والسبب في ذلك: ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ للكافرين، ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ وصدوا الناس عن سبيل الله سراً ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾، وهو تثبيط الناس عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ كما يعلم علانيتهم، وسيجازيهم أسوأ الجزاء. هؤلاء فزعوا من القتال، وبعدوا عن ساحات الجهاد.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾

يعني ﴿فَكَيْفَ﴾ حالهم، وماذا يفعلون ﴿إِذَا﴾ جاء أجلهم، و ﴿تَوَفَّتْهُمُ﴾

قبضت أرواحهم ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ !؟

﴿ذَٰلِكَ﴾ التعذيب لهم ساعة الموت ﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ عليهم ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾، ﴿فَأَحْبَطَ﴾ أضاع وأبطل الله - بالتالي - ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فلم يقبلها منهم، مهما كانت حسنة. ﴿أَمْ﴾ هل ﴿حَسِبَ﴾ هؤلاء المنافقون ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وفصلت أحوالهم الشنيعة: ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ﴾ يظهر ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿أَضْغَٰنَهُمْ﴾ أحقادهم علىٰ الإسلام وأهله؟

إن كان ذلك: فهو فهم خاطئ، وظن سيئ، وتصور جاهل. ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ يا محمد ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ ودللناك عليهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ بعلاماتهم، التي تظهر علىٰ وجوههم، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ كذلك ﴿فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ حيث لا يستطيعون كتمان ما بأنفسهم من الحقد والكراهية للإسلام وأهله، ثم يقول ربنا للمؤمنين بعد هذه التعرية للمنافقين: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ فيجازيكم عليها بحسب قصدكم.

ثم يقول لهم كذلك:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالجهاد ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ أي: نظهر ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الصادقين في الجهاد، ﴿وَنَبْلُوَا۟﴾ كذلك ﴿أَخْبَارَكُمْ﴾ كلها، سرها وعلانيتها.

أيها المؤمنون:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾

اعلموا أن هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات الثلاث وهي: الكفر، والصد عن دين الله، وعداوة الرسول ﷺ، وذلك ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ﴾ الحق، وعرفوا ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ هؤلاء: ﴿لَن يَضُرُّوا۟﴾ دين الله ﴿شَيْـًٔا﴾ بل يضرون أنفسهم ﴿وَسَيُحْبِطُ﴾ الله ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ من صدقة ونحوها، فلا يرون لها في الآخرة ثوابًا. **لذلك:**

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لا تكونوا كهؤلاء، بل ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ فامتثلوا لأوامره، واجتنبوا نواهيه، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ في شخصه حيًا، وبإحياء سنته، والعمل بها بعد وفاته ﷺ، ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ﴾ بالنفاق والرياء، أو الردة ﴿أَعْمَٰلَكُمْ﴾، نعم:

﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، حيث:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾

﴿إِنَّ﴾ هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾ غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وظلوا على ذلك ولم يتوبوا ﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ على هذا الحال: ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ لأن الله تعالى قال في محكم كتابه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦].

﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ وتذلوا ﴿وَتَدْعُوٓاْ﴾ عدوكم ﴿إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ والمصالحة ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ عليهم قوة، والأكثر منهم عددًا، ولا تهادنوهم إلَّا عند الضرورة التي يقدرها الإمام، ﴿و﴾ اعلموا أنَّ الله ﴿مَعَكُمْ﴾ سينصركم عليهم .﴿و﴾ كذلك ﴿لَن يَتِرَكُمْ﴾ وينقص سبحانه ﴿أَعْمَٰلَكُمْ﴾، بل يضاعف لكم ثوابها.

يا أيها الذين آمنوا:

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ لا قيمة لها، فهي ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ للمتعلق بها، فاحذروا أن تشغلكم عن طاعة الله، وأن تفتنكم بزينتها.

﴿و﴾ لذلك: ﴿إِن تُؤْمِنُواْ﴾ بالله ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ محارمه ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ فضلاً منه وكرمًا ﴿أُجُورَكُمْ﴾ وثواب أعمالكم الصالحة، ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ﴾ أيضاً: أخذ أَمْوالِكُمْ؛ لأنه سبحانه غني عنكم، وعن عباده جميعاً، وما تدفعونه في الصدقات والزكاة: فنفعها لكم. وذلك لأنه:

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾

يعني ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾ هذه الأموال ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ أي: يفرض عليكم دفعها كلها ﴿تَبْخَلُواْ﴾ بها، وبذلك البخل ﴿يُخْرِجْ﴾ ويظهر ﴿أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ أي: دخائل نفوسكم من تفضيل الأموال والأولاد، والدنيا علىٰ نصرة الدين، والدليل:

﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ الآن، وفي كل آن ﴿تُدْعَوْنَ﴾ من الله ﴿لِتُنفِقُواْ﴾ من أموالكم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ونصرة الدين، ﴿فَمِنكُم﴾ مَن يجود بماله، ومنكم ﴿مَّن يَبْخَلُ﴾ بماله .﴿وَمَن يَبْخَلْ﴾ بماله، ولا ينفق في سبيل الله ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ﴾ بالخير والثواب ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾ عز وجل ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ عن كل ما سواه، ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ دائمًا، وفي كل شيء إليه سبحانه وتعالىٰ، فلا تبخلوا بمالكم عن الإنفاق في سبيل الله، ولا تقصروا في طاعة الله عز وجل، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ تعرضوا عن طاعته، أو عن الجهاد: ﴿يَسْتَبْدِلْ﴾ سبحانه بكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يحملون هذا الدين، ويرفعون رايته، وينشرون مبادئه ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ في التخلي عن نصرة الإسلام، بل يكونون أطوع لله منكم، وأكثر للدين نصرة، ولأهله حماية، وعن حرماته دفاعًا، ويجاهدون في سبيله بأموالهم وأنفسهم.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفتح

وهي سورة مكية، تبدأ بقوله عز وجل:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ يا محمد المستقبل، وأبواب الخير لك ولدعوتك، ولأمتك بصلح الحديبية مع المشركين، وجعلناه ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ واضحاً ظاهراً؛ حيث أمن الناس الحروب، وانتشر الإيمان.

وكان ذلك؛ لتصل هذه النعم:

الأولىٰ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ حتىٰ ترغب أمتك في الجهاد، والمسارعة إلىٰ طاعة الله.

الثانية: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ في الدنيا والآخرة؛ بإعلاء دينك، وفتح البلاد علىٰ يديك.

الثالثة: ﴿وَيَهْدِيَكَ﴾ بما يشرِّع لك، وينزل عليك ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ لاعوج فيه ولا انحراف.

الرابعة: ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ﴾ بالجهاد علىٰ أعدائك ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ لا ذل بعده.

ثم يبيِّن ربنا: بعض أدوات النصر، فيقول سبحانه وتعالىٰ:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾

﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ وهي: الطمأنينة يوم صلح الحديبية ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين استجابوا لله ولرسوله ﷺ، وانقادوا طواعية، وذلك ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟﴾ بهذا الاطمئنان، والرضىٰ بحكم الله ورسوله ﴿إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: ثقة ويقيناً مع ثقتهم، ﴿و﴾ هكذا فإنَّ ﴿لِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ التي ينصر الله بها عباده.

ومن جنوده: هذه السكينة،التي نزلت علىٰ قلوبهم عندما أحس بعضهم بهذه الراحة النفسية عند هذه المعاهدة.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ عز وجل ﴿عَلِيمًا﴾ بقلوب عباده، وكيف يصلحها ﴿حَكِيمًا﴾ في أقواله، وأفعاله، وأحكامه المبنية علىٰ علمه المحيط سبحانه!!

رُويَ أن الصحابة رضوان الله عليهم عندما نزلت هذه الآيات، قالوا للنبي ﷺ: هنيئاً لك إنَّ الله غفر لك، فماذا لنا؟

فنزل قوله تعالىٰ:

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾

أي: ﴿لِّيُدْخِلَ﴾ الله عز وجل ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بهذا الجهاد والثقة والطاعة ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ للإقامة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا، ﴿و﴾ كذلك ﴿يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، ويصفح عنهم فلا يعاقبهم عليها، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإدخال في الجنة، والتكفير للسيئات ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لا يعادله فوز آخر يحصل عليه الإنسان.

ومن أدوات النصر للمؤمنين: تعذيب الله لأعدائهم، يقول الحق سبحانه:

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾

﴿وَيُعَذِّبَ﴾ الله ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ لشدة عداوتهم، وضررهم بالمؤمنين، ﴿و﴾ يعذب كذلك ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ لحربهم لله ولرسوله، كل هؤلاء ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ الذين كانوا يتهمون الله في حكمه، ويشككون في آياته، ويظنون بالنبي ﷺ وأصحابه الهزيمة: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ جميعاً تدور ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ وهي: العذاب والهلاك، ﴿و﴾ كذلك ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، ﴿و﴾ أيضاً ﴿لَعَنَهُمْ﴾ طردهم من رحمته، وحرمهم نهائيًا منها.

هذا في الدنيا، ﴿و﴾ أما في الآخرة، فقد ﴿أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ فأصبحت دارهم ومصيرهم ﴿وَسَآءَتْ﴾ لهم داراً و ﴿مَصِيرًا﴾.

ثم ينبِّه ربنا تبارك وتعالىٰ علىٰ قدرته من الانتقام من أعداء الإسلام، فيقول جل وعلا:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ التي يدفع بها كيد أعداء الإسلام، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي عزيزًا في ملكه وسلطانه، حكيمًا في صنعه وتدبيره.

هذا ويشرِّف الله حبيبه، ويحدد له مهمته، بقوله تعالىٰ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد برسالتا للناس جميعًا، ﴿شَٰهِدًا﴾ عليهم بالإيمان لمن آمن، وبعدمه لمن لم يؤمن، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنة، ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين بجهنم، وغضب الله.

ويبيِّن ربنا تبارك وتعالىٰ: فائدة إرسال النبي علىٰ هذا الوجه المذكور، بقوله عز وجل:

﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾

أي: أرسل سبحانه وتعالىٰ النبي هكذا ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟﴾ أيها الخلق جميعًا، وتصدقوا ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ﷺ، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ وتعزير الله: نصرة دينه ورسوله، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ أي: تعظِّموه، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: تُسبحوا ربكم في الصباح والمساء؛ ليكون القلب متصلاً بالله في كل آنٍ.

ثم تبيِّن الآيات أن من بايع النبي ﷺ صورة: فقد بايع الله حقيقة، إذ تقول الآيات:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ بيعة الرضوان بالحديبية ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ حقيقة؛ لأن في ذلك مرضاة لله، وإعزازاً لدينه، ونصرة لأهله، هؤلاء ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ التي بايعوا بها النبي ﷺ، يعني هو سبحانه مطلع عليهم، وعالم بهم، وسيجازيهم على ذلك خيرًا، ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ مبايعته لله، ونقض العهد، ولم يفِ: ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ والضرر لا يعود إلَّا عليه، والله عز وجل غني عنه، وعن عباده كلهم، ﴿و﴾ أما ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ في بيعته: ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ المولى عز وجل ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو الجنة.

هذا ولـمَّا ذكر الله أهل بيعة الرضوان، وأضافهم إلى حضرة الرحمٰن: بيَّن حال مَن تخلف عن رسول الله ﷺ، ولم يسعد بهذه البيعة، فقال تعالى:

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾

يعني إذا رجعت يا محمد إلى المدينة ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ عنك؛ اعتذارًا ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ عن الذهاب معك، ونحن مُقرُّون بالخطأ !! لذلك ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ربك، واعف عنا، واقبل عذرنا، ويكذبهم السميع العليم، ويعلم حبيبه والدنيا كلها بكذبهم هذا؛ حيث يقول: هؤلاء يكذبون، و ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ واعتذارهم نفاق، وطلبهم الغفران نفاق، فلا تصدقهم، و ﴿قُل﴾ لهم:

أولًا: لقد تخلفتم خوفاً من الضرر ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم﴾ إذن ﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ

﴿أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾؟ إنه لا أحد يملك ذلك بالطبع، ﴿بَلْ كَانَ﴾ أي: وكان ﴿ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ يعلمه، ويجازيكم عليه.

ثم يكشف السبب الحقيقي لتخلفهم، فيقول:

ثانيًا: ﴿بَلْ﴾ لقد ﴿ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ﴾ لن يعود ﴿ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ﴾ في المدينة ﴿أَبَدًا﴾ حيث سيقتلهم المشركون عن آخرهم وسينتهي أمرهم، وهذا: ظن خاطئ فاسد سيء. ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ﴾ من جهة الشيطان ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فصدقتموه، ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ الفاسد الخاطئ هذا، وبذلك ﴿كُنتُمْ﴾ يعني: صرتم ﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ فاسدين، خاسرين، هالكين لا خير فيكم.

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ وَصِدْق وعده، ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ وصدق قوله، ويخلص العمل لله في الظاهر والباطن: فقد كفر!! وعلىٰ هذا: ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ نارًا تُسَعَّر بهم، ويعذبون فيها.

هذا الأجر العظيم: لمن بايع الله ورسوله، وهذا العذاب الأليم: لمن كذب الله ورسوله، وكل ذلك بقدرة الله، ومشيئته.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

نعم هو المالك سبحانه، ولا مالك سواه لجميع الكون، وما فيه، ومَن فيه.

لذلك ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده بفضله ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده بعدله، ولكن: مغفرته أوسع، ورحمته أعمّ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ وما يزال ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

سبق أن ذكرت الآيات الكريمة: المخلَّفين وأعذارهم !!

والآن تذكر الآيات: هؤلاء المخلَّفين وأكاذيبهم وأطماعهم، فتقول:

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

﴿سَيَقُولُ﴾ لك ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ عن صلح الحديبية ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ﴾ إلىٰ خيبر جهادًا في سبيل الله، لإخضاعها لكلمة الله، وقد علموا أن فيها ﴿مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ بعد النصر: ﴿ذَرُونَا﴾ اتركونا ﴿نَتَّبِعْكُمْ﴾ ونأتي معكم، ونجاهد معكم،وهم بذلك كاذبون؛ حيث لا يريدون الجهاد، بل يريدون الغنائم، لأنهم عرفوا وعد الله بالنصر علىٰ خيبر، كذلك ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ الذي جعل به غنائم خيبر لأهل الحديبية فقط، ﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ ولن تخرجوا معنا، ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ هذا الحكم ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل سؤالكم الخروج معنا، وانتبهوا لجدالهم معكم ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ لكم ردًّا علىٰ ذلك: ﴿بَلْ﴾ أنتم ﴿تَحْسُدُونَنَا﴾ ولا تريدون الخير لنا.

وليس الأمر بالطبع أمر غنائم، ولا أمر حسد، ولكن الحقيقة غير ذلك؛ إذْ هي عدم الفهم، ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لذلك انحصرت همتهم في الماديات فقط.

ثم يفتح الله باب التوبة لمن أراد الصلاح منهم، فيقول الحق سبحانه:

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلْمُخَلَّفِينَ﴾ عن صلح الحديبية ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الذين قلت لهم لن تتبعونا قبل ذلك، ويريدون التوبة: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ أقوياء ﴿أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ من مشركي العرب، الذين لا يُقبل منهم إلَّا الإسلام أو الموت، تدعونهم إلىٰ الإسلام، فإن أَبَوا ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾!! ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾ وتنفروا لهذا

الجهاد، وتؤدُّوا هذه المهمة ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ﴾ الجنة ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ وتمتنعوا عن ذلك ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يوم الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ الله ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في النَّار.

وبمناسبة التخلف عن الجهاد وتركه: يذكر الله تعالىٰ الأعذار المبيحة لذلك: فيقول المولىٰ سبحانه:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ وهما من أصحاب الأعذار الدائمة، ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ﴾ دائمًا إن كان مرضه لا يرجىٰ منه الشفاء، ومدة المرض إن كان يرجىٰ له الشفاء، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الجهاد وغيره: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾ ثوابًا له، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: يُعرض عن الجهاد والطاعة ﴿يُعَذِّبْهُ﴾ الله ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار.

وبعد أن بيّن الله تعالىٰ: أن الذين يبايعون محمدًا ﷺ ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، يبيِّن هنا سبحانه: أنه قد رضي عنهم، إذ يقول المولىٰ عز وجل:

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

يخبر ربنا تبارك وتعالىٰ: أنه قد رضي ﴿عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين بايعوا النبي ﷺ علىٰ الجهاد ونصرة الدين، تحت الشجرة، يوم الحديبية، ـ وهم الذين يطلق عليهم: أهل بيعة الرضوان ـ حيث عَلِم ﴿مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص والصدق والوفاء والسمع والطاعة، كما علم ما في قلوب المنافقين من المرض والنفاق.

لذلك: كافأهم رب العزة بعد هذا الرضا، خيرًا كثيرًا، ومن ذلك:

أولًا: ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ وطمأن قلوبهم، وثبَّتهم في هذه اللحظات العصيبة.

ثانيًا: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ بهذا الصلح الذي تم بينهم وبين أعدائهم، والذي ترتب عليه ما ترتب من نشر الدعوة، وغير ذلك من وجوه الخير.

ثالثًا: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ مادية ومعنوية من سائر الفتوحات الإسلامية، ابتداءً بخيبر، ومروراً بغيرها، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ عز وجل ﴿عَزِيزًا﴾ كامل القدرة، منيع الجناب ﴿حَكِيمًا﴾ حيث جعل هلاك أعدائه على أيدي أوليائه.

ثم يكمل الله بيان مكافأته لأهل بيعة الرضوان، فيقول جل وعلا:

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾

في هذه الآية الكريمة: يخاطب الله تبارك وتعالىٰ أهل بيعة الرضوان، بما كافأهم به؛ بسبب صلح الحديبية، فيضيف سبحانه ـ أيضًا ـ ما يلي:

رابعًا: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ في المستقبل ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ﴾

مغانم ﴿هَٰذِهِ﴾ الغزوة.

خامسًا: ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ﴾ من المشركين المواجهين لكم، واليهود الذين خلفتموهم مع عيالكم بالمدينة، ﴿و﴾ هكذا ﴿لِتَكُونَ﴾ هذه الكفة والمنع لهم عنكم، والحماية لكم ﴿ءَايَةً﴾ وعبرة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعلمون بها أن الله ناصرهم؛ فتقوىٰ بها قلوبهم.

سادسًا: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بسبب طاعتكم لله، وانقيادكم لرسوله، وبيعتكم الصادقة ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ طريقًا قويمًا موصلاً إلى جنات النعيم.

سابعًا: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

يعني ﴿و﴾ لكم مغانم أي مكاسب ﴿أُخْرَىٰ﴾ غير ما سبق ذكره ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟﴾ وتحصلوا ﴿عَلَيْهَا﴾ حتىٰ الآن!! وهي: بشارة بالانتصارات الإسلامية المستقبلية، التي ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ علمًا وقدرة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ عز وجل ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾.

ثم يشد الله من أَزْرِ المسلمين، ويقوِّي من عزيمتهم؛ حيث يوضِّح لهم لونًا من قدرته، وسنة من سننه، إذ يقول جل جلاله:

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿و﴾ اعلموا أنه ﴿لَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يا أهل بيعة الرضوان: لنصركم الله عليهم، و ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ هروبًا منكم ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ لهم من دون الله يدفع عنهم ما ينزل بهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يقف معهم.

نعم، كان نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين:

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

حقًّا، هذه سنة الله في خلقه: أنه ما تقابل الكفر والإيمان في موقعة فاصلة، إلَّا نصر الله الإيمان وأهله، علىٰ الكفر وأهله.

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ [الفتح: ٢٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

يعني ﴿و﴾ لذلك ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلَّذِى كَفَّ﴾ ومنع ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: الكفار عنكم، وكفَّ ﴿أَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ يوم بيعة الرضوان ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أي: في الحديبية،وذلك ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ﴾ وسلَّطكم وأقدركم ﴿عَلَيْهِم﴾، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ حيث جعل هذا الصلح خيرًا للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

وهذا الكف والمنع للقتال: ليس لأنهم صالحوا أو انتهىٰ النزاع معهم، بل إنهم:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

أي: لا يغرنكم هذا الصلح، أو يغيِّر طبيعة الكفار في نظركم، فهم كما هم،!!

نعم، ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله تعالىٰ، وحاربوا رسوله، ﴿و﴾ هم الذين ﴿صَدُّوكُمْ﴾ ومنعوكم ﴿عَنِ﴾ دخول ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ لأداء العمرة ﴿و﴾ منعوا ﴿ٱلْهَدْىَ﴾ حالة كونه ﴿مَعْكُوفًا﴾ أي: محبوسًا، علىٰ ذمة الذبح عند الحرم ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ ليتم ذبحه، وهذا: من بغيهم وعنادهم، فلا تأمنوهم، ولا تغترُّوا بالصلح معهم، هذا ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ يقيمون بينهم، ويخفون إسلامهم ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ ولو حاربتم لكان الاحتمال ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ أي: تقتلونهم مع مَن تقتلون من الكفار ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم﴾ أي: من قتلهم ﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾ أي: إثم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ منكم بهذا الذنب، أي: لولا هؤلاء !! لما كفَّ الله أيديكم عنهم في هذا اليوم، وكان ذلك الكفُّ والمنع؛ ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ منهم باعتناق الإسلام ﴿مَن يَشَآءُ﴾، و ﴿لَوْ﴾ أن هؤلاء المؤمنين الذين يقيمون بين الكفار، ويخفون إيمانهم ﴿تَزَيَّلُوا۟﴾ تميَّزوا وعرَّفوا لكم؛ لتتلافوهم: ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي: من أهل مكة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بتسليطنا لكم عليهم.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

نعم، إنهم صدُّوكم عن المسجد الحرام وزيارته ﴿إِذْ﴾ أي وقت أن ﴿جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مكة ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ الأنفة والكبرياء؛ حيث لم يعترفوا له ﷺ بالنبوة، ولم يقرُّوا بالتوحيد، وحالوا بينه وبين البيت الحرام، وتلك هي

﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ الكافرة، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ في هذه الظروف والأجواء المشحونة ﴿سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلم يقابلوا حميتهم بانفعال أهوج، أو تصرف غير عاقل، بل أتمُّوا الصلح، علىٰ أن يعودوا في العام التالي لزيارة البيت، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ﴾ ربهم بتوفيقه ﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وهي كلمة التوحيد، فتصرَّفوا علىٰ هديها وتحت ظلالها، ﴿وَكَانُوٓاْ﴾ دون غيرهم ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ وأولىٰ ﴿و﴾ هم كذلك ﴿أَهْلَهَا﴾ الجديرون بها بتوفيق الله لهم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ حيث يُجري الأمور حسب علمه سبحانه وحكمته.

رأىٰ النبي ﷺ في منامه: أنه والمؤمنين معه يدخلون المسجد الحرام محلِّقين رؤوسهم ومقصِّرين دون تحديد موعد تحقُّق هذه الرؤيا، وفهم الناس: أن ذلك يكون في عامهم هذا، ولكنه لم يحدث، حيث كان الصلح في الحديبية بين المسلمين والمشركين: علىٰ أن يعود المسلمون لأداء العمرة في عامهم المقبل.

ورضي المؤمنون، ولكنَّ المنافقين جعلوها فتنة، وقالوا: ما دخلنا المسجد الحرام، وما حلقنا رؤوسنا، أي: كذَّبوا رؤيا النبي ﷺ، ولأن رؤيا الأنبياء حق، فقد كذَّبهم الله تعالىٰ، وقال في محكم آياته:

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

يعني ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ تبارك وتعالىٰ ﴿رَسُولَهُ﴾ في ﴿ٱلرُّءْيَا﴾ التي رآها ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ولم يَكْذِبْه، ثم أكَّد سبحانه ذلك بقوله للمؤمنين: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ في دخولكم ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، أي: منكم المحلِّق لشعره كاملًا، ومنكم المقصر، ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ شيئًا خلال استقراركم بمكة، وأدائكم مناسككم، وهكذا يكون، ﴿فَعَلِمَ﴾ الله من الخير والمصلحة في صرفكم عن مكة هذا العام، وتحقُّق ذلك في المستقبل ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ أنتم، حيث ﴿كَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦]، ﴿فَـ﴾ مثلاً: ﴿جَعَلَ﴾ الله عز وجل ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الدخول أي: قبل تحقُّق هذه الرؤيا ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو هذا الصلح، الذي كان فتحًا للدعوة، وانطلاقًا في نشرها.

ثم أكَّد الله عز وجل تصديق هذه الرؤيا بقوله:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

نعم ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمدًا ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ وهو: العلم النافع، والعمل الصالح ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الإسلام، وذلك ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ أي: يظهر الله دين الحق، بواسطة رسوله ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: الأديان كلها، وعلىٰ أهلها كذلك، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أنه ﷺ، مرسل من ربه بالهدىٰ ودين الحق.

نعم، إنه:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

إنه ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ الموصوف بأنه ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾، ﴿و﴾ أما وصف أصحابه المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ فهم:

أولًا: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ يعادونهم، ولا يتوددون إليهم.

ثانيًا: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ يحبُّون بعضهم بعضاً، يتراحمون، ويتعاطفون.

ثالثًا: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ لله تعالى، يطيعون ربهم، ويؤدُّون فرائضه.

رابعًا: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ مخلصين لله، يرجون فضله، ويطلبون رضوانه.

خامسًا: ﴿سِيمَاهُمْ﴾ علامة صلاحهم وتقواهم لله ﴿فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ والخضوع والخشوع لله رب العالمين.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي: وصفهم ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، ﴿و﴾ أما ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾!!

فهم: ﴿كَزَرْعٍ﴾ نما وترعرع، حتىٰ ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ فروعه التي تنمو علىٰ جانبيه ﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ﴾ وقوي هذا الزرع ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾، وصار ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ شكلًا وحجمًا وثمارًا، وقد شبَّه الله صحابة رسول الله بذلك: ﴿لِيَغِيظَ﴾ الله ﴿بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أعداء الحق والهدىٰ والخير.

ثم يكون ختام السورة: بوعد إلهي باقٍ إلىٰ يوم القيامة، يسعد به مَن كان أهلًا له، حيث يقول سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وثقوا وصدقوا ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي ترضي الله تعالىٰ، وتصلح البلاد، وتسعد العباد، ﴿مِنْهُم﴾ ومن غيرهم ممن يسير علىٰ منهاجهم، وعدهم ﴿مَّغْفِرَةً﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ علىٰ حسناتهم وهو الجنة.

جعلنا الله تعالىٰ وجميع المسلمين من هؤلاء، إنه ولي ذلك والقادر عليه، اللهم آمين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجرات

هذه السورة مدنية، وهي تبدأ بقوله تبارك وتعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾

هذا هو **النداء الأول** للمؤمنين في السورة الكريمة، من نداءات خمسة تضع مناهج وأسس، بما فيها من أمر أو نهي لعالم نظيف شريف عفيف يقوم عليها، وينتسب إلىٰ الله بها؛ ليقود الدنيا وأهلها إلىٰ الخير والصراط المستقيم.

والآية تنهى نهيًا جازمًا عن التقدم علىٰ كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ بشيء آخر، وعن الإقدام علىٰ أمر من الأمور دون معرفة هدي الله سبحانه وتعالىٰ، وهدي رسوله ﷺ فيه.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما تفعلون، وفيما تتركون، حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما تقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تفعلون، ويجازيكم علىٰ الخير بمثله، وعلىٰ الشر بما تستحقون.

ولمَّا نهىٰ ربنا عز وجل عن الفعل الذي يجعل للإنسان مدخلًا في شرع الله ورسوله، أتبع ذلك بالنهي عن القول أيضًا، فقال تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾

وهذا هو **النداء الثاني** للمؤمنين ينهاهم ربنا تبارك وتعالىٰ بقوله: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ إذا نطقتم ﴿فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ ﷺ احترامًا له، وإجلالًا لشأنه وتعظيمًا لشرعه وسنته، وذلك في حياته ﷺ.

وأيضًا: بعد مماته عليه الصلاة والسلام؛ حيث يكره رفع الصوت عند قبره، كما كان يكره في حياته.

ثم يقول المولىٰ: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ إذا ناجيتموه، وتحدثتم معه ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ في أحاديثكم، كل ذلك: مخافة ﴿أَن تَحْبَطَ﴾ ويضيع ثواب أَعْمَالِكُمْ التي ترجون ثوابها ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بذلك.

وبعد هذا النهي: يرغِّب ربنا تبارك وتعالىٰ في خفض الصوت عند رسول الله ﷺ بقوله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾

نعم، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ﴾ يخفضون ﴿أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ إجلالًا له، واحترامًا، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ هم ﴿ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وسَّعها وشرحها ﴿لِلتَّقْوَىٰ ۚ﴾، ولذلك ﴿لَهُم﴾ عند ربهم ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهو الجنة.

وبعد أن حدَّثنا المولىٰ عن الذين يغضُّون أصواتهم، يبيِّن لنا المقابل لهم، فقال: ـ يا محمد ـ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

نزلت هاتان الآيتان في قوم من الأعراب نادوا النبي ﷺ بغلظة وجفاء، فأنزل المولى ذلك تعليمًا للأمة، وبيانًا لمكانة المصطفى ﷺ، حيث قال له ﴿إِنَّ﴾ هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ الخاصة بنسائك ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الأدب مع الله، ومعك، فهم جُهَّال، وفيهم سفاهة عقول، خاصة وأنهم جاؤوا يطلبون منك إطلاق سراح أسراهم.

﴿و﴾ لذلك ﴿لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟﴾ ولم يتعجلوا، ولم ينادوا بهذه الغلظة، وانتظروا

﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ فيقولون لك ما يريدون ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في دنياهم وآخرتهم، ثم يدعوهم المولىٰ إلىٰ التوبة فيقول: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فاستغفروه، وتوبوا إليه، واطلبوا رحمته بطاعة رسوله، والأدب معه، والعمل بشرعه وسنته.

وبعد الحديث عن هذين النداءين الالٰهيين للمؤمنين، يأتي **النداء الثالث**، فيقول الحق سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾

هذه الآية: في ضرورة التثبُّت من الأخبار، حتىٰ لا تكون فتنة، ويحدث بسببها ما لا تُحمد عقباه:

﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ بخبر ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ من صحته، وتثبَّتوا مخافة ﴿أَن تُصِيبُوا﴾ بتصرفكم بناءً علىٰ هذا الخبر ﴿قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ وضرر وأذية ﴿فَتُصْبِحُوا﴾ وتصيروا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾ بناءً علىٰ هذا الخبر ﴿نَادِمِينَ﴾ مغتمِّين غماً لازماً.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

يعني: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فعظِّموه، ووقِّروه، واتَّبعوا سنَّته؛ فهو أعلم بما فيه صالحكم، كما أنَّه ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ الذي تختارونه، أو تحبونه ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ أي: وقعتم في شدة وحرج ومشقة، وهذا: لمن أرادوا أن يتبعهم النبي ﷺ فيما يريدون.

وأما الذين أرادوا أن يتبعوا هم النبي ﷺ فيما يريد، فيقول لهم ربهم: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ﴾ وإلىٰ نفوسكم ﴿الْإِيمَانَ﴾ فاسترحتم إليه ﴿وَزَيَّنَهُ﴾ حسَّنه ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فعملتم به، ﴿و﴾ في الوقت ذاته ﴿كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ ثم يقول عن هؤلاء مرغبًا غيرهم في اتباع طريقتهم: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ الذين أرشدهم الله إلىٰ الصواب، وإلىٰ كل خير.

وذلك الإرشاد ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عليهم ﴿وَنِعْمَةً﴾ منه خصهم بها، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق ذلك من عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل.

هذا، ولمَّا حذَّر ربنا من التصرف بناءً على خبر الفاسق، ولكن مع هذا التحذير: قد يحدث تصرف بناءً عليه، ويكون قتال.

لذا، بيَّن الله الفعل المناسب الواجب على الأمة في هذه الحالة، فقال جل جلاله:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾

أي: ﴿وَإِن﴾ حدث شيء من كاذب، أو إشاعة مغرضة، أو خلاف لسبب ما، و ﴿طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ نتيجة لذلك ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ﴾ بسرعة، ولا تتركوا هذا الخلاف يزداد، ولا هذا القتال يستمر؛ حتى يَسود الود، ويعمَّ السلام، ويتفرَّغ الجميع للعمل الصالح البنَّاء النافع للأمة، ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ رفضت الصلح العادل، واستمرت في العدوان ﴿عَلَى﴾ الطائفة ﴿ٱلْأُخْرَىٰ﴾، ماذا نفعل يا ربنا؟ ﴿فَقَٰتِلُوا۟﴾ بقوة إسلامية موحَّدة، الطائفة ﴿ٱلَّتِى﴾ ترفض الصلح، و ﴿تَبْغِى﴾، أو أن تصالح، ثم تعود وتنقض هذا الصلح، و ﴿تَبْغِى﴾ على الأخرى، وذلك: ﴿حَتَّىٰ تَفِىٓءَ﴾ أي: ترجع ﴿إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ شرعه، وتكتب الصلح، وتلتزم به، ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ رجعت عن عدوانها، ورضيت الصلح وشرع الله: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ الذي أمر الله به ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ أزيلوا الخلاف بينهما،حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ بين رابطة قوية، وهي رابطة الدين والحب في الله، والتناصر بالحق، فلا تتركوهم يدب الخلاف بينهم، ويسرق الشيطان منهم هذه الأخوَّة، وإذا حدث خلاف ﴿فَأَصْلِحُوا۟﴾ بسرعة ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾ المتخاصمين، أو المتقاتلين، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾ في تدخلكم هذا، وأخلصوا نِيَّاتكم، واحكموا بالعدل بينهما ﴿لَعَلَّكُمْ

﴿تُرْحَمُونَ﴾ جميعًا من مخاطر الخلاف والعداوة والقتال، وذلك بسبب تقواه سبحانه وتعالىٰ.

وبعد أن بيّن ربنا تبارك وتعالىٰ وأرشد المؤمنين إلىٰ ما ينبغي أن يكون من الأدب مع الله، ومع رسوله، ومع المؤمن الفاسق، وذلك في النداءات الثلاثة السابقة، يبيِّن عز وجل في هذا **النداء الرابع** ما ينبغي من الأدب مع المؤمن الحاضر، إذ يقول سبحانه وتعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾

في هذه الآية: تدريب علىٰ أدب كريم، وخلق عال للمسلم؛ حيث ينهاه ربه عن ثلاثة أشياء هي: السخرية، واللَّمز، والنبز، وهي أخلاق ثلاثة سيئة، لا يحبها الله في المؤمن:

أولًا: ﴿لَا يَسْخَرْ﴾ لا يستهزئ ﴿قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ رجال من رجال، أفرادًا كانوا أو جماعة ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ﴾ أي: المستهزَأ بهم ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ عند الله تعالىٰ. ﴿وَلَا﴾ يسخر ﴿نِسَآءٌ﴾ كذلك ﴿مِّن نِّسَآءٍ﴾ غيرهنّ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ عند الله تعالى.

ثانيًا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ﴾ غيركم، وتطعنوا فيهم، فهم أَنْفُسُكُمْ، حيث إن المسلمين كالجسد الواحد، ولا ينبغي أن يطعن العاقل في نفسه.

ثالثًا: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ فتنادون بعضكم بعضًا بألقاب لا تحبونها.

ومن يفعل هذا: فهو مخالف لشرع الله، ويصِحّ أن يطلق عليه لفظ الفاسق.

و﴿بِئْسَ﴾ هذا ﴿ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ﴾ عنده ﴿بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ الذي أنعم الله عليه به.

علىٰ أية حال: توبوا أيها المؤمنون من هذه الأخلاق السيئة، ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم.

وبعد هذا يكون **النداء الخامس** للمؤمنين، وفيه: ما ينبغي من الأدب مع المؤمن الغائب، حيث يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

وفي هذه الآية كذلك: تدريب على أدب كريم، وخلق رفيع ينبغي أن يتحلى به المسلم، حيث ينهاه ربه عن ثلاثة أشياء: هي: الظن السيئ، والتجسس، والغيبة، وهي: أخلاق سيئة لا يحبها الله في المؤمن:

أولًا: ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ حيث ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وهو الظن السيء بأنواعه.

ثانيًا: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ على بعضكم بعضًا، وتبحثوا عن العيوب.

ثالثًا: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ والغيبة: أن تذكر أخاك بما يكره، وهي: ذكر العيب في ظهر الغيب.

ثم ينفِّر الله عن ذلك بطريقة قوية رهيبة، حيث يقول ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ ؟ أبدًا، لا يحب أحد ذلك، نعم ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ وعلى ذلك: فينبغي أن تكون كراهيتكم للغيبة كذلك، و ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ يعينكم الله على التحلي بهذه الأخلاق، وتوبوا عما سبق منكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ يقبل توبة عبده، ﴿رَّحِيمٌ﴾ يغفر الذنب، ويرحم مَن عاد إليه، وصلح حاله.

وبعد هذه النداءات الخمسة للمؤمنين: يخاطب الله عز وجل المؤمنين والكافرين والناس جميعًا بهذا النداء:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ جميعًا ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ﴾ هو آدم عليه السلام ﴿وَأُنثَىٰ﴾ هي حواء عليها السلام، فلا معنى للتفاخر بالحسب والنسب، والتعالي على بعضكم بعضًا بسبب ذلك، ﴿و﴾ أيضًا ﴿جَعَلْنَٰكُمْ﴾ بقدرتنا ﴿شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ عديدة متنوعة ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ ليعرف بعضكم بعضاً، فتعاونوا على البر والتقوى.

أما إذا أردتم التفاخر والتفاضل، فاعلموا أنه يكون بالإيمان والتقوىٰ، نعم ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ﴾ وأفضلكم ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ وأقربكم إليه، وأعلاكم بين خلقه عنده ﴿أَتْقَىٰكُمْ﴾ له سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكرم القلوب وتقواها ﴿خَبِيرٌ﴾ بالنفوس وهواها.

ولمَّا قال ربنا عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ !!

ظهر أن الأكرم مَن اتقىٰ ربه، ومن المعلوم: أنه لا يتقي ربه إلَّا المؤمن، وبذلك: صار الكرم بالإيمان.

ومن هنا ادعىٰ بعض الأعراب ـ بمجرد نطقهم الشهادتين ـ الإيمان، فبيَّن الله تعالىٰ لهم أن الإيمان ليس بالقول، فقال جل وعلا:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

أي: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ لرسول الله مدَّعية هذا الشرف ﴿آمَنَّا﴾ في الوقت الذي لم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد، ولذلك: قال ربنا لحبيبه ﷺ ﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ وتصدقوا بقلوبكم، فلا تقولوا آمنا ﴿وَلَٰكِن﴾ أسلمتم، وانقدتم بجوارحكم فقط، ولهذا ﴿قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾.

نعم، أسلمتم ظاهرًا ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ حتىٰ يجتمع الظاهر والباطن، فيصير الإسلام والإيمان شيئًا واحدًا، ﴿و﴾ علىٰ كل حال: ﴿إِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل أموركم ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ لا ينقصكم ﴿مِن﴾ ثواب ﴿أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده.

ولمَّا نفىٰ ربنا عنهم الإيمان الذي ادعوه بيّن لهم الإيمان الحقيقي، وأهله، فقال تعالىٰ:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الكاملون حقيقة، هم ﴿الَّذِينَ﴾ اتصفوا بما يلي:

أولًا: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ أي: وثقوا ﴿بِـ﴾ دين ﴿ٱللَّهِ﴾ وشرعه، الذي جاء به محمدٌ عبدُ الله و﴿رَسُولِهِۦ﴾ والتزموا به، وجعلوه منهاج حياتهم.

ثانيًا: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي: لم يشكوا في شيء منه، لا عن طريق الشبهات التي يثيرها المغرضون، ولا عن طريق الشهوات التي يروِّجها المنحرفون.

ثالثًا: ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إعلاءً لكلمته، ونشرًا لدعوته، ولم يبخلوا بشيء من ذلك، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في إيمانهم، ولا يدَّعون الإيمان دون تضحية بغالٍ أو رخيص من أجل هذا الدين، وليس مَن يدَّعون الإيمان دون توائم بين ظاهرهم وباطنهم مخلصين النيَّة لله.

ولذلك يقول ربنا للنبي ﷺ:

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين يدَّعون الإيمان: أتخبرون الله بما في صدوركم، ظنًا منكم أنه لا يعلم ذلك ـ وحاشا لله ـ أو ظنًا منكم أنه لا يكشف سركم !!

لا، إنه يعلم ذلك، وأكثر من ذلك، إنه سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾ عز وجل فوق هذا وذاك ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فاحذروه.

ثم يبيِّن مظهرًا من مظاهر عدم تمكُّن الإيمان من قلوب هؤلاء، فيقول الحق سبحانه:

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ﴾ يعني: يعدُّون إسلامهم إنعامًا منهم عليك، وهذا: فهم خاطئ، ومنّ سيئ، لذلك: ﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ﴾ حيث لا نفع لي به، إنما نفعه يعود عليكم أنتم، ﴿بَلِ ٱللَّهُ﴾ حقيقة هو الذي ﴿يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ الذي تدَّعونه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم: ﴿ءَامَنَّا﴾ [الحجرات: ١٤].

حيث إن المنّ بتعداد النعم من العبد مذموم مرفوض، ومن الله عز وجل ممدوح مرغوب؛ لأنه صاحب كل النعم، والعبد لا يملك شيئًا.

حقًّا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ تبارك وتعالىٰ، لا تخفىٰ عليه أسراركم، وأعمال قلوبكم، حيث إنه ﴿يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ كله، ومن ذلك نياتكم، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ وسيجازيكم عليه بما تستحقون.

* * *